الحجج المؤسِّسَة لبنية الواقع(المُبَنْيِنَة للواقع) في الخطاب القرآني قصة سيدنا موسى عليه السلام أنموذجاً

د. أمحمد عرابي
جامعة معسكر.

الملخص:

يعد الحجاج من أهم المواضيع التي أنتجتها الدراسات اللغوية الحديثة في الحقل اللساني التداولي، باعتباره مجموعة من التقنيات والآليات الخطابية التي تُوَجَّهُ إلى المتلقي بغرض إقناعه والتأثير فيه، وعليه فالحجاج هو جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع.

تعددت زوايا النظر إلى الحجاج بحسب زاوية نظر الدارسين له؛ فالبلاغة التقليدية نظرت إليه كمكوِّن من مكونات الخطاب ويتشكل بتشكله وتتغير وظائفه وطرقه الاستدلالية بتغيره. كما تتجلى آثاره في الدراسات التراثية المختلفة وتتعدد بتعدد مجالاتها، غير أنه أصبح في الدراسات الحديثة مجالا خاصا، تضبطه ماهية ومفاهيم خاصة وآليات وتقنيات متعددة أهلته إلى بلوغ مرتبة النظرية اللغوية القائمة على أسس علمية دقيقة.

ومن هذه المعاينة خطر لي أن أجمع بين الاهتمامين :الحجاج بأبعاده التداولية المعاصرة ممثلة على الخصوص في الطرح الحديث الذي تقدم به كل من "بيرلمان Perelman وزميله تيتكا Tyteca" في مصنفهما الموسوم بـ "مصنف في الحجاج – البلاغة الجديدة، raite de l'Argumentation– Nouvelle Rhétorique". والقرآن الكريم بوصفه مدونة تطبيقية تنجلي فيها أضرب الحجاج على اختلاف أنواعها. وارتأيت، من باب التحكم في الموضوع، حصر المداخلة في قصة موسى -عليه السلام- باعتبار أنه من أكثر الرسل مُحَاجَّة للكفار؛ فقد حاجّ الرؤوس الثلاثة الأكثر انغماسا في الشرك والإلحاد وهم: فرعون وهامان وقارون، كما أنه –عليه السلام- قد أفنى عمره في كسر عناد بني إسرائيل مستعملا شتى أضرب الإقناع، ولذلك ارتأيت أن تُوسم هذه المداخلة بـ: الحجج المؤسسة لبنية الواقع(المُبَنْيِنَة للواقع) في الخطاب القرآني ـ قصة سيدنا موسى عليه السلام أنموذجاً.

والمراد من هذا الجمع بين النظرية الحجاجية المعاصرة والقرآن الكريم وهو الخطاب الكوني الذي لا تنضب دلالاته، هو الوقوف على تقنيات ومقاصد الشرع الحكيم في توظيفه للحجاج، ومدى قابلية المُحاجَّة القرآنية في التغلغل داخل العقول الأكثر إلحادا أو عنادا لحملها على الاقتناع والإذعان

المنارة للاستشارات

للحكمة الإلهية، ففيما يتجلى ذلك في الخطاب القرآني الكوني بعامة، وفي قصة موسى بخاصة؟

لمعالجة هذه المشاغل وغيرها ارتأيت تأسيس مداخلتي على جملة من المفاهيم النظرية والتطبيقية أهمها:

1 ـ مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح.

2 ـ تقنيات الحجاج ودورها في تحقيق فاعلية الإقناع.

3 ـ تقنيات الحجاج والخطاب القرآني.

4 ـ الحجج المبنينة للواقع في قصة سيدنا موسى عليه السلام.

وفي الأخير نرجو أن تُحظى مداخلتنا هذه من سيادتكم الموقرة بالقبول

1 ـ مفهوم الحجاج:

تقاربت نظرة الدارسين اللغويين لمفهوم الحجاج في اللغة بخاصة ورأوا أنه يضارع الجدل والبرهان اللذان يستدل بهما المتكلم، وله مفهوم لغوي وآخر اصطلاحي. 1 ـ 1 ـ الحجاج في اللغة :

الحجاج في اللغة من"حاجَّ يُحَاجِجُ حِجَاجَاً". وقد حده ابن سيده (ت458هـ) بقوله:« حَاجَجْتُهُ أُحَاجُّهُ حِجَاجَاً مُحَاجَّةً من حَجَجْتُهُ بالحجج التي أدليت بها ،والحُجَّةُ البرهان ».[1] فالحُجَّةُ عند ابن سيده هي البرهان أو سلسلة الحِجَج التي يستطيع المتكلم أن يفحِم بها المتلقي.

أما ابن منظور(ت711هـ) فقد ذكره في معجمه وقال: « حَاجَجْتُهُ أُحَاجُّهُ حِجَاجَاً ومُحَاجَّةً حتى حَجَجْتُهُ؛ أي غلبته بالحجج التي أدليت بها ... ويقال حَاجَّهُ مُحَاجَّةً وحِجَاجَا نازعه الحُجَّةَ...ويقال أنا حَاجَجْتُهُ فأنا مُحَاجُّهُ وحَجِيجُهُ ؛أي مغالبه بإظهار الحجة التي تعني الدليل والبرهان».[2] فابن منظور حذا حذو ابن سيدة في مفهومه هذا ورأى أن الحجة هي البرهان والدليل.

يتضح من خلال ما سبق أن الحجاج يتجلى في الخطابات التي تهدف للإقناع، وغرضه التأثير في المتلقي أو إرغامه على الامتثال لأمر ما والتسليم به.

---

[1] المحكم والمحيط الأعظم- ابن سيده –تحقيق: عبد الحميد هنداوي-لبنان –دار الكتب العلمية-مادة (حجج).

[2] لسان العرب -ابن منظور-لبنان –دار صادر –ط1-المجلد 2-مادة (حجج)

المنارة للاستشارات

1 - 2 - الحجاج في الاصطلاح:

تباينت نظرة الدارسين المعاصرين (العرب-والغربيين) لمفهوم الحجاج بحسب تنوع الزوايا التي نظروا إليه: البلاغية واللسانية والفلسفية والأصولية، وهو ما أدى إلى ظهور العديد من المفاهيم المتعددة التي أثرت حقل الدراسات اللسانية بعامة والحجاجية بخاصة ومن أبرز هذه المفاهيم في العصر الحديث نذكر:

. مفهوم بيرلمان Perelman وتيتكاه Tyteca للحجاج :

يرى هذان الباحثان أن«موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات ، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»[1]. فالخطاب الحجاجي عندهما خطاب واعي يرتكز في أساسه على منتجي الخطاب، وعلى مدى قدرته على بناء نص حجاجي من خلال توظفيه للآليات الحجاجية المختلفة، إذ أنه يحمل الطابع الجدلي الذي يتجسد بين الباث والمتلقي وفق تقنيات معينة يحاول بواسطتها كل منهما إقناع الآخر وإفحامه بحجج منطقية عقلانية.

. الحجاج عند طه عبد الرحمن:

انطلق طه عبد الرحمن من حقيقة الاستدلال في الخطاب الطبيعي ورأى بضرورة هذه الحقيقة الحجاجية لا البرهانية الصناعية. وفي مستهل حديثه عن الحجاج قال: «وحد "الحجاج"أنه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي، لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية، إنشاء موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صورا استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة»[2]. لأن الاستدلال باعتباره «طلب الدليل»[3] يشمل مجالي

---

[1] الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية - عبد الله صولة -ص27 عن traité de l ' argumentation ,p5.

[2]في أصول الحوار وتجديد علم الكلام - طه عبد الرحمن- المعرب-المركز الثقافي العربي-ط3-2007-ص65

[3]مفتاح الوصول إلى علم الأصول- محمد الطيب الفاسي –في شرح خلاصة الأصول –عبد القادر الفاسي –تحقيق إدريس الفاسي الفهري-الإمارات العربية المتحدة-دار البحوث للدراسات الاسلامية وإحياء التراث-ط1-2004-ص308.

المنارة للاستشارات

البرهان والحجاج معا. وعلى هذا قد يكون غير كاف إذا كان الاستدلال يحمل الصفة البرهانية لتحقيق الإقناع الذي يهدف إليه الحجاج، كأن تبني الانتقالات فيه على الصور مع مضامينها مجتمعة لا على صور القضايا وحدها وأن تحمل هذه الانتقالات ضمنيا الكثير من المقدمات والنتائج وأن يُفْهِم المتكلم المتلقي معاني غير تلك التي نطق بها، أملا في استحضارها من طرف المتكلم إثباتا أو إنكارا كلما تحقق ذلك داخل نفس السياق الاجتماعي[1].

يبدو من خلال هذا المفهوم أن الحجاج عند طه عبد الرحمن يكتسي طابعا تداوليا جدليا، لأنه يأخذ في الحسبان السياقات المقامية والاجتماعية المختلفة، وكذا المعارف والخبرات المشتركة بين المتخاطبين بعامة بهدف الانسجام الحواري التخاطبي بغرض التأثير والإقناع. لذا فالحجاج عنده أعم من البرهان لأنه قائم على صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة.

فمن خلال هذه التعريفات والمفاهيم المختلفة للحجاج في الحضارتين العربية والغربية، يتضح أن الحجاج فعل خطابي موجه من مرسل لمتلقي، قائم على سلسلة من الحجج تتحقق في سياقات مقامية مختلفة داخل اللغة، تهدف إلى النفي أو الإثبات بغرض التأثير والإقناع.

2 ـ مفهوم الحجج المؤسسة لبنية الواقع (المُبَنْيِنَة للواقع) Arguments Fondant La Structure Du Réel:

تهدف هذه الحجج إلى الربط بين الأحداث المعيشة أو المتتابعة، فهي تجمع بين وقائع مترابطة زمانيا أو مكانيا أو رمزيا. و« تربطها صلة وثيقة بالواقع، ولكنها لا تتأسَّسُ عليه ولا تنبني على بنيته، وإنما هي التي تُؤَسِّسُ هذا الواقع وتبنيه، أو على الأقل تكمله وتظهر ما خفي من علاقات بين أشياءه، أو تجلي ما لم يتوقع من هذه العلاقات وما لم ينتظر من صلات بين عناصره ومكوناته»[2]. ويمكن التمثيل لهذا الترابط بما يأتي: "في هذا المنزل صراخ كثير، إذن به متخاصمين"، فههنا تلازم مكاني بين شيئين مختلفين، أو"هذا الشخص مصاب بسرطان الرئة إذن "كان يدخن"، وههنا تلازم زماني كان فيه توالي الأحداث بين لحظتين مختلفتين كذلك."وهؤلاء المتظاهرون يحرقون العلم

---

[1] ينظر في أصول الحوار وتجديد علم الكلام-طه عبد الرحمن-ص65.

[2] الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه-ص242

المنارة للاستشارات

الإسرائيلي"، إذن هم رافضون للكيان الصهيوني؛ فهذا التلازم تلازما رمزيا.فهذا التعالق لا نخلقه ولكننا نستعمله بعد تناوله جاهزا من المجتمع، فالاستدلال هنا على الشيء بشيء آخر يرتبط به[1].

إضافة إلى الترابطات التشابهية فقد نعبر عن كرم "عمرو" فنقول :"عمرو كثير الرماد"؛أي كريم.

3 ـ الحجج المؤسسة لبنية الواقع في قصة سيدنا موسى عليه السلام

تلتحم الحجج المؤسسة لبنية الواقع بالواقع التحاما وثيقا وتسعى إلى تأسيسه، لأن هدفها هو الربط بين الأحداث المعاشة أو المتتابعة، فالاستدلال عن القضايا في هذا الضرب من الحجاج يكون بقضايا أخرى ترتبط بها مكانيا وزمانيا ورمزيا. وتقوم هذه الحجج في جوهرها على مستويين اثنين هما:

1- تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة كالشاهد والمثال والقدوة.

2- تأسيس الواقع بواسطة التمثيل كالتشبيه والاستعارة والتناسب.

1. الحجج المُبَنْيِنَة للواقع التي تعتمد على الحالات الخاصة:

يسعى هذا النوع من الحجج إلى إثبات أو توضيح أو تقوية قاعدة معينة، ويختصر "بيرلمان Perelman "وظائف هذه الحالات الخاصة بعبارته «ففي حال الشاهد ستسمح ه بالتعميم، وفي حال المثال ستسمح بدعم قاعدة قائمة سلفا وفي حال القدوة ستدعو إلى الإقتداء»[2].ويعتمد هذا الصنف من الحجج في تأسيسه على ثلاثة أنواع من الحجج وهي :

1-1.الشاهد (exemple) :

يُوَظّف الشاهد لإثبات أطروحة معينة من طرف المحاجج بغرض إقناع المتلقي، ويسعى الشاهد إلى الربط بين المتفقات في الجنس وقد أشار "فرانسوا موروFrançois Moreau" إلى أصوله المباشرة في البلاغة اليونانية التي تمثلت لدن أرسطو وسيسيرون وكنتليان الذين ألحوا على احتياج الخطيب إلى المعرفة العميقة والعلم الدقيق بشواهد التاريخ والميثولوجيا والخرافات البطولية أيضا. وقد حده بوصفه « قصة موجهة لاستخدامها كدعامة

[1] ينظر: الاستعارة في محطات ويونانية وعربية وغربية -ص399.

[2] الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية –محمد الولي –ص403.

المنارة للاستشارات

تبريرية»[1]؛ أي أنه يُستخدم للربط بين الأشياء التي تنتمي إلى الجنس أو النوع نفسه. وقد مثّل لذلك بعلاقة موسى مع بني إسرائيل إذْ يقول: « أعتَبرُ أن موسى كان أَلْين رجل على وجه الأرض في وقته وقد كان يعاقِب بشدة المتمردين والعصاة من شعب إسرائيل»[2]، فـ"فرانسوا مورو François Moreau" وظّف اسم موسى -عليه السلام – كشاهد لإثبات الليونة والشدة في تعامله مع بني إسرائيل، باعتبارها واقعة حقيقية قديمة لاستخلاص فائدة أو إشارة إلى السلوك الذي ينبغي اعتماده.

كما تناول "إرنست روبير كورتيوس " مفهوم الشاهد وعرّفه بقوله: «إن الشاهد هو إضفاء القبول على فكرة باللجوء إلى حدث قديم واقعي أو خرافي أو أسطوري أو منتم إلى التراث الأدبي، أو حدث صناعي احتمالي أو خيالي، فنُسلِك هذه الفكرة أو الواقعة المطروحة ضمن نفس الخيط الذي يُسلَك فيه الحدث القديم أو الموروث، فنعتبرهما معا يندرجان ضمن نفس الصنف من الوقائع. إننا نُضفي القبول على الفكرة المطروحة وغير المقبولة، بسلكها ضمن جنس الحديث القديم الذي يحظى عندنا بالقبول. إن الواقعة القديمة التي يُسند بها الشاهد ينبغي- تبعا لهذا- أن تكون واضحة ومعروفة ومقبولة أو احتمالية»[3].أي أن قبول الأطروحة من طرف المتلقي والتي تعتمد بدورها على الشاهد للإقناع ترتهن بالمعارف المشتركة بينه وبين المحاجج.

فمحاولة إثبات الدعوى ينطلق من واقعة قديمة لتأسيس واقعة حديثة يسعى المحاجج لتحقيقها وإقناع المتلقي بها. ومن نماذج هذه الحجة في قصة موسى –عليه السلام- قوله تبارك اسمه:(إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)[4].يُرْوى في توضيح الحدث الأول من هذه القصة أن أخت موسى جاءت بإيعاز من أمها « متعرِّفة خبره، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثدييها؛ وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة، فقالت: هل أدُلُّكم؟ فجاءت بالأم فقبِل ثديها، ويروى أن

---

[1] البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية-فرانسوا مورو –ترجمة: محمد الولي وعائشة جرير- المغرب-دار الخطابي للطباعة والنشر –ط1-1989-ص38.

[2] المرجع نفسه – ص38.

[3] الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية –محمد الولي –ص401

[4] سورة طه –الآية 40.

المنارة للاستشارات

آسية استوهبته من فرعون، وتبنته، وهي التي أشفقت عليه، وطلبت له المراضع»[1].فأخت موسى استطاعت أن تؤسس واقعا ممثلا في تحقيق عملية الرضاعة انطلاقا من حقيقة واقعية هي إرضاع الأم لابنها، وهو ما جرت به العادة.لأن الملأ آنذاك احتاروا وشككوا في الأمر حتى هموا بمساءلتها، وقالوا: «هل تعرفين هذا الصبي؟ فقالت: لا، ولكن أعلم من أهل هذا البيت الحِرس على التقرب إلى الملكة والجد في خدمتها ورضاها، فتركوها وسألوها الدلالة، فجاءت بأم موسى، فلما قرَّبته شرب ثديها، فسُرَّت آسية وقالت لها كوني معي في القصر»[2].فعلاقة الرضاع الفطرية القائمة بين الأم وابنها، إضافة إلى قدرة الله تعالى هي ما جعلت موسى يقبل ثدي أمه ويمتصه.

فالواقعة اعتمدت على الأحداث ذات الطبيعة الواقعية وذلك ما أكده "بيرلمان Perelman " بقوله :« إن الشاهد المستعمل ينبغي له، لكي يُفهم باعتباره كذلك أن يتمتع بوضع الواقعة [أي الوجود العيني أو الفعلي]، على الأقل مؤقتا. إن أكبر امتياز لاستعماله هو لفت النظر إلى هذا الموضع»[3]. فأخت موسى استطاعت أن تقنع من كان حوله بعملية التكفل والرضاع، وأثبتت أطروحتها من خلال الربط بين حاجة موسى لحليب أمه، وهي غريزة في المواليد وبين قلق أمه عليه، وأمل رؤيته للاطمئنان عليه، وذلك بإلهام من الله تعالى.فقد فرض الشاهد –ههنا- لقبول الأفعال بالاعتماد على الأحداث المنجزة واقعيا.

I-2.المثال (Illustration) :

يسعى المحاجج من خلال الاستدلال بالمثل إلى توضيح فكرة أو أطروحة معينة، «ويبدو المثل واضحا بوصفه التعبير عن فكرة معينة بواسطة صورة ما، إن إحداهما تعوض الأخرى اعتمادا على علاقة مشابهة»[4]، وهو بهذا يسمح «بدعم قاعدة قائمة سلفا»[5]،الأمر الذي يجعله يختلف عن الشاهد الذي يسعى إلى إثبات وتأكيد قضية معينة، وذلك حسب الوظائف المسندة لكل منهما في تحقيق عملية الإقناع أو الحمل على الإذعان.

---

[1] الكشاف-الزمخشري-ج3-ص145 و146.

[2] البحر المحيط-أبو حيان الأندلسي-ج7-ص332.

[3] الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية-محمد الولي-ص405.

[4] البلاغة :المدخل لدراسة الصور البيانية-فرانسوا مورو-ص37.

[5] المرجع نفسه-ص403.

المنارة للاستشارات

للمثل دور أساسي في تحقيق العملية التواصلية، إذ «يتم الاستدلال أحيانا كثيرة بناء على المثال المفرد المعزول الذي يُعتمد لتعميم حكم ما أو فكرة معينة، فيتأسس الواقع على ظاهرة مفردة يتم توسيعها بحيث تصبح حالة عامة لا مجرد حالة خاصة، ثم الانطلاق منها وبناء الواقع عليها»[1].فالتمثيل يلجأ إليه المحاجج لدعم القضية المطروحة وتوضيحها أكثر،لأن المثل« يعتبر حجة قياسية تقوم على المشابهة، وقد يكون خياليا أو حقيقيا»[2] ويعتمد عليه كتقنية لشد انتباه المخاطب أكثر وحمله على الإذعان.

احتل أسلوب التمثيل في الخطاب القرآني حيزا واسعا« ليكون إحدى الوسائل التي تأخذ طريقها إلى النفس الإنسانية لتثبيت دعائم الإيمان فيها، إذ لا يكفي أن يُساق المعنى الكلي المجرد ليكون جامدا أمام التصُّور البشري، بل كان لابد أن يتمثل في صورة ملموسة محسة، لأنه مهما أوتي العقل البشري من القدرة على التجريد، فإنه يظل في حاجة إلى تمثل هذا المعنى المجرد في صور وأشكال وخصائص ونماذج»[3].ويتجلى المثل في القرآن الكريم بعامة في قوله تعالى:(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)[4].فالله تبارك اسمه أورد المثل في الخطاب القرآني ليقرب لنفوس البشرية المعاني الظاهرة والضمنية عن طريق المحسوسات والمشاهد والصور والآيات المختلفة. ومن ذلك: المثل الذي سيق عن الكفرة، والذي وضعهم وحطهم مكانة دنيئة، إذ يتضح في قوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ)[5].فسياق هذه الآي وُظِّف فيه المثل لتشخيص صورة الكافر الضال في صورة كلب، وهذا مثل تصويري سيق ليفي

---

[1] الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه –سامية الدريدي-ص243

[2] L'argumentation Du Discours A La Pensée –Georges Vignaux –France – Edition Hatier–1999–p24

[3] النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن-صلاح الدين محمد عبد التواب-الكتاب الثاث-ص28.

[4] سورة الكهف-الآية 54.

[5] سورة الأعراف – الآيات175-177.

المنارة للاستشارات

الخطاب القرآني بغرضه الديني ممثلا في حمل البشرية على الإيمان بآيات الله والعمل بها.

وقد وردت حجة التمثيل في قصة موسى -عليه السلام – عندما جاوز الله البحر ببني إسرائيل ووجدوا قوما يعبدون الأصنام، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها مثل إله أولئك القوم، كما ورد ذلك في قوله تعالى :(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)[1]؛ فبنو إسرائيل في طلبهم هذا اشترطوا أن يكون إلههم مثل إله القوم العاكفين على أصنامهم، فاستعملوا أسلوب التمثيل لإقناع موسى، وفي ذلك قال الزمخشري: « {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا} صنما نعكف عليه{كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ } أصناما يعكفون عليها»[2]، وكانت هذه الآلهة (الأصنام) تماثيل بقر من نحاس وهو أول شأن العجل، وقيل كانت من حجارة، فطالبوا موسى -عليه السلام-بمثلها ليعبدوها، والكاف في (كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) متعلقة بمحذوف وضع صفة لإله وما موصولة، ولهم صلتها، والآلهة بدلا من الضمير المستتر، والتقدير اجعل لنا إلها كائنا كالذي استقر لهم[3]. فالتمثيل الذي استعملته بنو إسرائيل كان ينتمي إلى صنف المتفقات في الجنس، وهو شرط استعمال المثل.وفي الإمكان توضيح ذلك بما يأتي:

المثل الواقعي	⟷	المثل الذي يبني الواقع
آلهة القوم العاكفين	⟷	إله بني إسرائيل
صنم من نحاس في شكل بقرة	⟷	طلب صنم من نحاس على شاكلته
من جنس مادي	⟷	طلب إله مادي (ملموس)
قوم ضالون	⟷	مستعدون للضلال

فبنو إسرائيل باستعمالهم هذا المثل حاولوا دعم الارتباط المتعلق بعبادة الأصنام، التي هي وقائع معيشة لا تستحق التأسيس بل التوضيح فقط، إذ«يختلف المثال Illustration عن الشاهد من جهة وضع القاعدة التي يَسعيان إلى دعمها، في حين كان الشاهد مستخدما لتأسيس القاعدة، فإن

[1] سورة الأعراف –الآيات -138-140.

[2] الكشاف- الزمخشري –ج2-ص194.

[3] ينظر روح المعاني -الألوسي-ج9-ص40.

المنارة للاستشارات

المثال يضطلع بدور تقوية أو دعم الارتباط لقاعدة معروفة ومقبولة، بتقديم حالات خاصة تضيء الفكرة Enoncé العامة وتُبَيِّن أهمية هذه عَبْرَ تنوع تطبيقاتها وتزيد حضورها في الوعي»[1].فالمثل الوارد في سياق الآيات السالفة ورد بغرض شد انتباه موسى -عليه السلام- وحمله على الإقناع باتخاذ الأصنام آلهة وتم ذلك اعتمادا على شيء محسوس ظاهري، لأن المثال لا يسعى إلى تعويض المجرد بالمحسوس أو العكس، بل يسعى إلى تأسيس واقع معين من خلال الربط بين الأشياء المتعالقة فيما بينها والتي تنتمي إلى النوع أو الجنس نفسه.

I-3.القدوة (النموذج) Modèle:

تمثل القدوة كل مَنْ يتميز عن غيره بسلوكات أو صفات تؤهله إلى أن يكون النموذج الأمثل الذي يُحتذى به، وتُعد القدوة جزءاً من التمثيل، إذ يعرّفها "أوليفيي روبول Olivier Reboul" بكونها «المثال الذي يظهر بمظهر يستوجب تقليده»[2]. ولعل أهم ما يُميز القدوة عن باقي حجج الحالات الخاصة عند استعمالها من طرف المحاجج هي حث المتلقي على الاقتداء بها. ولعل أبرز شاهد يجسد أسمى قدوة في تاريخ الإنسانة، ما جاء في خطابه تعالى: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[3]؛ فالله تبارك وتعالى يحثنا في هذه الآية على لإقتداء بالرسول -صلى الله عليه وسلم - فنأتمر بأوامره وننتهي بنواهيه، فـ «ليس أي فعل أهلا لكي يُحتذى: نحتذي إلا بمن نُعجب بهم، أولئك الذين يمتلكون السلطة أو الشهرة الاجتماعية التي تعود إلى كفاءتهم أو إلى وظائفهم أو إلى المرتبة التي يحتلونها في المجتمع»[4]. فتأسيس الحضارة وقيام المجتمعات، يتوقف على وجود القدوة الحسنة التي تؤسس واقع هاته المجتمعات وتبنيه انطلاقا من سلوك القدوة وأفكارها المثالية. ومن ثم فإن للقدوة سلطة تُوظف بقيادة الركب.

---

[1] الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية –محمد الولي-ص408.

[2]الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه-سامية الدريدي-ص245. عن مدخل إلى الخطابة-أوليفيي روبول-ص186.

[3] سورة الحشر –الآية 7.

[4]الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية-محمد الولي-ص410.

المنارة للاستشارات

وقد سيقت حجة القدوة في قصة موسى في مواطن عدة، «فالقصة القرآنية تخضع في موضوعها وطريقة عرضها، وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية»[1]. ومن ذلك ما جاء على لسان فرعون عندما عاتب السحرة على إيمانهم لما جاء به موسى –عليه السلام-وذلك في قوله تعالى: (قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)[2]. لقد اتخذ السحرة موسى قدوة لهم رغم معاتبة فرعون لهم، فتوعده بالعقاب الشديد كان انطلاقا من الإيمان بما جاء به موسى–عليه السلام- الذي أثر في السحرة بحجة العصا التي أتت على كل ما صنعه السحرة في ساحة المساجلة، «ولهذا يعيش من يُعْتَبَرُ قدوة ضمن سياج سميك من الطقوس التي تحمي الصفات المُؤَمِّنة للقدوة ودوامها، إلا أن هذه الحماية والاستمرارية لا تتوقف على الشخص القدوة فحسب، بل إن الآخرين يمكنهم الإساءة إليها إذا عملوا على التشبه بها»[3]. فإذا كان فرعون بسلطته قدوة لملئه، فإن موسى أصبح بآيات ربه قدوة للسحرة ومن آمن به، وهؤلاء جميعا همّوا بالاقتداء به أملا في طلب المغفرة والرضى من الغفور الرحيم، كما يتبين ذلك في قوله تعالى:(قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)[4].

يظهر في الأخير أن هناك تفاوت في درجات الاستدلال الحجاجية بين كل من:الشاهد (Exemple) والمثال(Illustration) والقدوة (Model)، وهو اختلاف ينبني على أساس الوظائف الحجاجية التي تسعى إلى بناء الواقع، وذلك من منطلق أنَّ«الشيء الذي نتوسل به يختلف -عند بيرلمان - تبعا للوظائف الحجاجية التي تُسند إليه، فحينما يسعى إلى "إثبات" قاعدة يدعى شاهداExemple وحينما يعمل على مجرد "توضيحها" يدعى مثالا Illustrationوحينما يعمل هذا الشيء على حث المتلقي "على الإقتداء به"

---

[1] بلاغة السرد القصص في القرآن الكريم قصة يوسف نموذجا –ابراهيم عبد المنعم ابراهيم –ص24.

[2] سورة الشعراء- الآيات 49-51

[3] الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية –محمد الولي-ص410.

[4] سورة الشعراء-الآيتان50-51

المنارة للاستشارات

يدعى قدوةModel»[1]. فقد أقر "فبيرلمانPerelman" التمييز بين الشاهد والمثال والقدوة على أساس الوظائف الحجاجية إنطلاقا من تجارب وأحداث سابقة معيشة واقعيا.

II-الحجج المُبَنْيِنَة للواقع التي تعتمد على التمثيل :

يسعى هذا النوع من الحجج إلى تأسيس واقع معين عن طريق التمثيل القائم على التشبيه. والاستدلال بواسطة التمثيل يعني: «تشكيل بنية واقعية تسمح بإيجاد أو إثبات حقيقية عن طريق تشابه في العلاقات، فهو احتجاج لأمر معين عن طريق علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر»[2]، فالاحتجاج بالتمثيل يهدف إلى بَنْيَنَة وقائع معينة قِوامها التشبيه.

لقد تطرق علماؤنا القدامى إلى هذه الظاهرة وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني، في فصل (في مواقع التمثيل وتأثيره)، إذ يقول: «واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أُبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا»[3]. ثم يسترسل في الحديث عن التمثيل حتى يصل إلى دوره في الحجاج فيقول :«وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر»[4]. فقد وضح الجرجان يفي كلامه هذا دور التمثيل في تحقيق الفاعلية الإقناعية، وأقرّ أن التمثيل كلما تخلّل الخطاب الحجاجي كان استدلاله أشد وأقوى وإقناعه أعم .

من خلال هذه الرؤى المتعددة للتمثيل، نجد أن تحقيقه يرتهن بوجود التشبيه والاستعارة والتناسب، وهي البنى التي يقوم عليها في السعي لبَنْيَنَة الواقع.

II-1.التشبيه :

---

[1] الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية –محمد الولي-ص403.

[2] الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه –سامية الدريدي-ص225.

[3] أسرار البلاغة –عبد القاهر الجرجاني-ص88.

[4] المرجع نفسه-ص88.

المنارة للاستشارات

يُعد التشبيه من أكثر الحجج استعمالا وتداولا، إذ يسعى إلى بناء الواقع عن طريق الربط بين القضايا المتباينات في الجنس. وقد حده "ابن رشيق"، بقوله: «التشبيه: وصْفُ الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان أياه»[1]. فالتشبيه عند "ابن رشيق" يتحقق ما لم تكن فيه مطابقة كلية بين المشبه والمشبه به، بل تكون المطابقة في بعض الأجزاء أو الصفات. ويعتبر التشبيه أقرب إلى خيال الإنسان وأدنى إلى إدراكه وتصوره وهو من أكثر صور البيان تداولا وتوظيفا[2]، وقد ذكر "ابن حزم الأندلسي" التشبيه في قوله :«قال علي :التشبيه بين الأشياء المشتبهة حق مشاهد، فإذا شبه الله عز وجل أو رسوله صلى الله عليه وسلم شيئا بشيء فهو صدق وحق وتنبيه على قدرة عظيمة لأنه ليس في العالم شيئان إلا وهما مشتبهان. من وجه ما، وغير مشتبهين منى وجه آخر، وقد قال تعالى:(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)[3]، فهذا الذي قلنا هو ارتفاع التفاوت لأن التماثل هو حد التفاوت، وإذا بطل التفاوت صح التماثل»[4]. الأمر الذي يؤكد رأي ابن رشيق القيرواني في مفهومه للتشبيه.

يعد الاستدلال بحجة التشبيه هو طريقة « إثبات الشيء بآخر، وهو ما يأخذ ظاهر الاستدلال، دون أن يحمل دائما المعاني الدقيقة للكلمة في المنطق الطبيعي أو الرياضي»[5]. وقد وُظِّفَ بشكل لافت في الخطاب القرآني لما له من أثر في تحريك المشاعر والنفوس، ودفع لإمعان العقل والتّدبّر.

ومن هذه التوظيفات قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)[6].ففي الآيتين تشبيهان :

---

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه -ابن رشيق – تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد –لبنان-دار الجيل- ط5-1981-ص174.

[2] ينظر: النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن –صلاح الدين محمد عبد التواب- ص72.

[3] سورة الملك –الآية3.

[4] الإحكام في أصول الأحكام-ابن حزم الأندلسي –ج4.ص468.

[5] L'argumentation Du Discours A La Pensée –Georges Vignaux –p25.

[6] سورة النور –الآيتان39-40.

المنارة للاستشارات

الأول: وقد شُبِّهَتْ فيه أعمال الكافرين بسراب يثير لهفة في نفس العطشان الذي يأمل من خلالها تحقيق الارتواء والنجاة، وعندما ياتيه ليرتوي منه لا يجده، بل يجد الفراغ الذي يبقيه على ظمئه عقابا من الله، بغية إثارة الرُّعب والفزع في قلوب الكافرين، وهي غاية حجة التشبيه في هذه الآية، وهو من جنس ما يعرف بالتشبيه التمثيلي لأن وجه الشبه فيه منتزع من متعدد.

الثاني :وقد شُبِّهَت فيه أعمال الكافرين بالظلمات التي تحفُّها هالة من الغلس والغموض، وهي صورة مُفزِعة رهيبة، ذلك أن الظلام –ههنا-هو ظلام مركب حالك (ظلمات في بحر لجي -يغشاه موج – من فوقه موج-من فوقه سحاب-ظلمات بعضها فوق بعض.) وسنوضح هذه التركيبة الحجاجية بالمدرج الآتي :

ن: بحر مظلم الكافر إذا أخرج يديه لم يكد يراها

من شدة الظلام

3.فوقه سحاب ظلمات

2.فوقه موج ظلمات ظلمات بعضها فوق بعض

1.يغشاه موج ظلمات

فكلا الحجتين التشبيهيتين تسعيان إلى تحقيق معنى واحد، وهو الحث على العمل الصالح لتحقيق النجاة في الدنيا والآخرة ورضا الله تعالى، وكل منهما يأخذ بالقلوب والعقول لتحريك المشاعر والنفوس، فهما بهذا يؤسسان واقعا بواسطة التمثيل القائم على الربط بين قضيتين متباينتين في الجنس(1.عمل الكافر-2 سراب)و (1عمل الكافر-2 ظلمات) وهي غاية حجة التشبيه.

وقد وردت الحجة القائمة على التشبيه في قصة موسى –عليه السلام- في مقاطع متعددة منها حسب ما يقتضيه المقام للاستدلال بالتشبيه. ونظير ذلك ما نجده في خطابه تعالى، بعد أن أوحى الله إلى موسى -عليه السلام- أن يلقي عصاه، إذ قال له : (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)[1]، فالتشبيه ورد في الآية الأولى بكامل

[1] سورة القصص-الآيتين31-32.

المنارة للاستشارات

أركانه: المشبه(العصا)، المشبه به (الجان)،وأداة التشبيه (كأنّ)، وقد شبه الله تعالى العصا بالجان لخفته وسرعة حركته وقدرته على التستر، «فمن أراد أن يشبه حركة أو هيئة بغيرها فعليه أن يتطلب أمرا يشترك الطرفان»[1].وهو ما أكده الألوسي عند وقوفه على هذه الآية شرحا وتفسيرا بقوله «والفاء في قوله تعالى{ فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ } فصيحة مفصحة عن جمل حُذفت تعويلا على دلالة الحال عليها، وإشعاراً بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أي فألقاها، فصارت حية، فاهتزت، فلما رآها تهتز وتتحرك { كَأَنَّهَا جَانٌّ } هي حية كحلاء العين لا تؤذي كثيرة في الدور، والتشبيه بها باعتبار سرعة حركتها وخفتها لا في هيئتها وجثتها»[2]. فوجه الشبه بين المشبه والمشبه به هو الخفة والحركة في تحقيق الهدف، «ولا نشبه الشيء إلا بشيء أقوى وأشهر يتجلى فيه وجه الشبه بصورة قوية»[3]. والجان أشهر المخلوقات خفة وهو ما يتعلق بقدرة الجان على الحركة وسرعته في مقابل العصا. باعتبار أن ذلك من صفات الجان وخصائصه. فحجة التشبيه في هذا المقام سيقت لتبني واقعا يؤكد فاعلية العصا في اهتزازها وحركتها من منطلق العلم بمعرفة الجان باعتباره حقيقة مجردة يقينية، وحجة التشبيه تحققت بين عنصرين مختلفين في الجنس هما: العصا والجان، والرابط السببي هو الخفة وسرعة الحركة.

II-.2.الاستعارة:

تحوز الاستعارة على مكانة بالغة الأهمية في حقل الدراسات الحجاجية لأنها تحمل في جوهرها طاقة لتحقيق الفاعلية الاقناعية، ويرجع الفضل في إخراج الاستعارة من حقل البلاغة التقليدية التى اهتمت بها درسا وتمحيصا، إلى "بيرلمان Perelman" الذي أكسبها قوة حجاجية في مجال الدراسات المتعلقة بالحجاج، أو ما يسمى بالبلاغة الجديدة، إذ «طهَّر البلاغة الحجاجية من البلاغة المحسناتية...ولهذا فقد احتلت الاستعارة مكانا إلى جانب التشبيه أو المقارنة ضمن الجنس الثالث من أجناس المقومات الحجاجية. هذه واحدة من إضافات بيرلمان: إبطال مفعول بلاغة المحسنات وإدراج الاستعارة والتشبيه ضمن بلاغة الحجاج»[4].فالباحث يعتبر المقارنة والتشبيه والاستعارة حُجَجا

[1] علوم البلاغة –أحمد مصطفى المراغي-لبنان –دار الكتب العلمية-ط4- 2007-ص220.

[2] روح المعاني-الألوسي –ج20-ص74.

[3] الميسر في البلاغة العربية-ابن عبد الله شعيب-الجزائر-دار الهدى-1992-ص33.

[4] الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية-محمد الولي-ص457.

المنارة للاستشارات

تسهم في بلاغة الحِجاج، وتشخص أكثر الالتباس القائم بين التشبيه والاستعارة.

اهتم علماء البيان القدامى بالاستعارة كمقوِّم من مقومات علم البيان، ومن الذين اهتموا بذلك درسا وتنظيرا الإمام عبد القاهر الجرجاني، الذي حدها بقوله: «اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للَّفظ أصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية»[1]. فالجرجاني أشار إلى انبناء الاستعارة على مفهوم النقل المجازي باعتبار وجود القرينة المشتركة بين المستعار منه والمستعار له سواء كانت لفظية أو معنوية، لكنه نقل يعتمد على الشبه، مما يجعله يختلف عن سائر أنواع المجاز.

فاستعمال الاستعارة كحُجّة يحمل المتلقي على الإذعان ويجعله يمعن عقله في تأويلها، وإدراك حقيقتها.

تتأسس الاستعارة بدورها على أركان ثلاث وهي: «مستعار وهو اللفظ، ومستعار منه وهو المشبه به، ومستعار له وهو المشبه»[2]، والعلاقة بين المستعارمنه والمستعار له تقوم على وجود رابط سببي- قرينة لفظية أو معنوية - بينهما لكي يتحقق النقل الاستعاري بينهما في الخطاب الحجاجي.

إذا كان دور الاستعارة في الخطاب الحجاجي يقتصر على إثارة النفوس والخيال وتحريك المشاعر بغرض إقناع المتلقي، فإنها تجلَّت في الخطاب القرآني بصورة واضحة، وفي مواطن متعددة، لتؤدي أغراضها الدينية التي تسعى إلى بناء الواقع ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[3]. فقد قال الزمخشري في إجراء هذه الاستعارة: «والمعنى أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه(خَيْرٌ أَمْ مَنْ)أسس على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء ،وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل (شَفَا جُرُفٍ هَارٍ) في قلة الثبات والاستمساك. وُضِع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛

---

[1] أسرار البلاغة –عبد القاهر الجرجاني –ص27.

[2] علوم البلاغة –أحمد مصطفى المراغي-ص259.

[3] سورة التوبة –الآيتان-109-110.

المنارة للاستشارات

لأنه جعل مجازا عما ينافي التقوى»[1].وهي صورة جد رائعة، حيث تكشف عن حال من يقيم بنيانه على غير تقوى من الله،« فتخيّل للحس –حينئذ- حركة انهيار سريع ومفاجئ لا يكاد يدع فرصة واحدة للنجاة، فهذا الذي أسس بنيانه على حافة الهاوية لم يلبث أن هوى مع أساسه{ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ}هكذا بلا تراخ، وكأنّ الحياة الدنيا على طولها لا تستدعي التعبير بحرف التراخي (ثم)، وإنما هو التعقيب المباشر السريع "فانهار "لأن هذا المدى وإن طال جد قصير»[2]. فاستعير لفظ" البنيان" الذي يخص ما هو مادي للعمل باعتباره معنوي.

صورت لنا هذه الاستعارة عمل المؤمن وعمل الكافر في شكل بنيان، وأصل البنيان متعلق بالجدران والسفن والأعمدة وغيرها، وهو ما أكده الرُّمَّاني بقوله:«وأصل البنيان إنما هو للحيطان وما أشبهها، وحقيقته اعتقادهم الذي عملوا عليه، والاستعارة أبلغ لما فيها من البنيان بما يحسن ويتصور، وجعل البنيان ريبة وإنما هو ذو ريبة، والاستعارة أبلغ كما نقول :هو خبث كله، فجاء على البلاغة لا على الحذف الذي إنما يراد به الإيجاز في العبارة فقط»[3].تهدف هذه الاستعارة إلى تأسيس واقع يكمن في الحث على التقوى والعمل الصالح، من منطلق أن كل من كان تقيا وعمل صالحا، سينال مرضاة الله تعالى، ومن كان ظالما وعمل السيئات فجزاؤه جهنم وهي مثوى له.

ومن الاستعارات الحجاجية التي وردت في قصة موسى- عليه السلام- تلك التي عبر بها البيان القرآني عن الأمر الصادر لموسى-عليه السلام- لتجنيد بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء*، كما يظهر في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)[4].فالله تبارك وتعالى وعد بني إسرائيل، إذ هُم

---

[1] الكشاف –الزمخشري-ج2-ص332.-333.

[2] النقد الأدبي –دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن-محمد صالح عبد التواب-ص88.

[3] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن-الرماني،الخطابي،عبد القاهر الجرجاني –تحقيق :محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام-(رسالة النكت في إعجاز القرآن للرماني)مصر-دار المعارف-ط3-1976- ص91 و92 .

* النقيب هو الذي ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها(الكشاف –الزمخشري –ج2-ص14).

[4] سورة المائدة –الآية 12.

المنارة للاستشارات

قاموا بما أوجب الله عليهم، ولا يتراجعون عن القتال كما تراجعوا من ذي قبل، أن يجعل ثواب هذه الأعمال مكفّرا لما ترتب عليهم من عقاب لما تراجعوا أول مرة عن القتال.

تتمثل الاستعارة في لفظ القرض في قوله جل بيانه:(وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)أي «بالإنفاق في سبيل الخير، وقيل بالتصدق بالصدقات المندوبة، وأيا ما كان فهو استعارة، لأنه سبحانه لمّا وعد بجزائه والثواب عليه شبهه بالقرض الذي يقضى بمثله، وفي كلام العرب قديما الصالحات قروض{ قَرْضًا حَسَنًا }وهو ما كان من طيب نفس على مقال الأخفش، وقيل : ما لا تبعه مَنٌّ ولا أذى، وقيل: ما كان من حلال، وذكر غير واحدا أن قرضا يحتمل المصدر والمفعول به»[1].فالقرض هنا متعلق بالصدقة.

وصفوة القول أن القرض متعلق بالمال أو ما يقترض من الأشياء المادية، لكن الله تعالى استعارها لأنه توعد بجزائه لمن لم يخالف وعده، فالرابط السببي- القرينة- بينهما هي الوعد والأجل. وبالتالي فقد سيقت هذه الاستعارة الحجاجية لتبني واقعا يقتضي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل والإقدام على القتال والحفاظ على العهد والتصدق، انطلاقا من تجارب ووقائع سابقة تمثلت في نقض عهد القتال، ثم جاءت استعارة القرض لتربط بين متشابهين منتميين إلى جنسين مختلفين متباينين، الأول مادي والثاني معنوي وهما: القرص والوعد بالثواب

ومن ثم نستنتج أن الخطاب الاستعاري أعلى حجاجيا من الخطاب العادي. وسنقف على ذلك بشيء من التمثيل وفق الجدول الآتي:

[1] روح المعاني - الألوسي –ج6-ص88.

المنارة للاستشارات

المستعار منه	المستعار	المستعار له	الرابط السببي
القرض المادي من مال وأشياء مادية مختلفة .	القرض	الصدقة	الوعد والأجل

شبه الله تعالى الصدقة بالقرض، ثم حذف المشبه من باب الاستعارة التصريحية والرابط السببي الجامع بينهما(القرينة) أن كلاهما مأجور.

II-3. التناسب Analogie :

يتداخل مفهوم التناسب مع الاستعارة باعتبار هذه الأخيرة جزءا منه، ويتحقق بين الموضوع (المستعار منه)، والشبيه (المستعار له).

يحيلنا التناسب الحجاجي، الذي« يجمع في الكلام بين أمرين أو أمور متناسبة»[1]، على تلك العلاقة التي يمكن إدراكها بين شيئين مختلفين، وكل واحد منهما يتأسس على ركنين تربطهما علاقة معينة، ذلك إن التناسب «يتألف في بنيته العميقة من أربعة أطراف؛ فأنت حينما تقول " أسد علي " فإنك تعوّض الشخص الشجاع بالأسد، في حين أنك عندما تقول مع بير كليس" إن الشباب اختفى من الدولة كما لو كانت السماء قد فقدت ربيعها" فأنت لا تتحدث عن شيئين ولكن عن أربعة أشياء هي: الشباب والدولة والربيع ودورة الفصول الأربعة؛ أي السنة، فكما أن الربيع في علاقته بكل الفصول هو الأروع فكذلك الشباب في علاقته بالدولة»[2].فعلاقة التشابه التي تجسد التماسك تتمثل في علاقة الدولة بشبابها وعلاقة الدورة السنوية بالربيع، وهي التي سعى "بير كليس" إلى توضيحها. ومثال ذلك يتجسد في علاقة المتنبي بقومه إذ يقول[3]:

وما أنا منهم بالعيش فيهم لكن مَعْدِنُ الذّهب الرَّغَامُ

فأبو الطيب في حديثه عن علاقته مع قومه يقول: «فلا أحسب نفسي واحدا منهم رغم وجودي بينهم كالذهب الذي يوجد في التراب وهو ليس منـه»[4]. فالمتنبي بنى بيته على علاقتين اثنتين تقومان على التشابه وهما:

الأولى: بينه وبين قومه في صدر البيت من جهة، والتي يبين فيها أنه مهما عاش مع هؤلاء الناس فلا يُعدُّ منهم.

---

[1] علوم البلاغة-أحمد مصطفى المراغي-ص323.

[2] الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية –محمد الولي-ص423.

[3] ديوان المتنبي –لبنان –دار الجيل –ص101.

[4] شرح يوان أبي الطيب المتنبي-مصطفى السبيتي –لبنان-دار الكتب العلمية-ج1-ص144.

المنارة للاستشارات

الثانية: بين الذهب والرَّغام في عجز البيت من جهة أخرى، والتي يبين فيها أن الذهب ليس من التراب ولو كان فيه.

فالنسبة القائمة بين شطري البيت هي علاقة تناسب بين شيئين في موضوع معين (الانتماء) لتشابههما.

فعلاقة التناسب القائمة بين العناصر الأربعة (المتنبي وقومه- الذهب والرغام) هي أقدر على الإقناع لأنها تقدم الحقيقة أو الواقع في شكل صورة.

لقد وظف الخطاب القرآني مثل هذه الصور القائمة على التناسب في مواطن كثيرة، ومما أورده منها في قصة موسى –عليه السلام- قوله عز اسمه: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)[1]. ففي سياق هاذين الآيتين نجد استعارتين ممثلتين في اللفظتين (سلطان وساحر)، وهما يشكلان بدورهما تناسبا بين علاقتين في تسمية السلطان المبين سحرا وكذبا، وهو ما أكده الزمخشري في قوله: «{ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ } وحجة ظاهرة، وهي المعجزات، فقالوا : هو ساحر كذاب، فسموا السلطان المبين سحرا وكذبا»[2]. فالسلطان متعلق بالآيات البينات، وهي الحجج الظاهرة، والسحر متعلق بالسلطان. وحكى الطَّبرسي أن«المراد بالآيات حجج التوحيد وبالسلطان المعجزات الدالة على نبوته عليه السلام، وقيل الآيات المعجزات والسلطان ما أوتيه عليه السلام من القوة القدسية، وظهورها باعتبار ظهور آثارها من الإقدام على الدعوة من غير اكتراث»[3]، فعلاقة موسى بالآيات البيّنات تشبه علاقة فرعون وقارون وهامان بالسحر، لأن الأول رسول مؤيد بمعجزات ربه، والثاني متكبر كافر يعتمد على السحر وظيفة وبرهانا. وفي كل الحالات جاءت المشابهة القائمة على التناسب بين علاقتين، فهي علاقة تناسب بين شيئين في موضوع معين.

وغير بعيد عن ذلك تظهر حجة تناسبية أخرى، تلك المتعلقة ببني إسرائيل عندما نُكصوا على أعقابهم وتقاعصوا عن مقاتلة أعدائهم، والتي حكاها الذكر الحكيم في قوله تعالى: (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)[4]. تُظْهِرُ الآيتان عناد بني إسرائيل،

---

[1] سورة غافر-الآيتان23-24.

[2] الكشاف-الزمخشري-ج4-ص8.

[3] روح المعاني - الألوسي –ج24-ص61.

[4] سورة المائدة-الآيتان24-25.

المنارة للاستشارات

ورفضهم طاعة موسى- عليه السلام- والتصريح بمخالفتهم لأوامره، ودليل ذلك ما جاء على لسانهم في قوله تعالى:« { فَاذْهَبْ}؛ أي إذا كان الأمر كذلك فاذهب { أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا }؛ أي فقاتلاهم وأخرجاهم حتى ندخل الأرض. وقالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه وبرسوله -عليه السلام- وعدم مبالاة، وقصدوا ذِهابهما حقيقة كما ينبئ عنه غاية جهلهم وقسوة قلوبهم»[1]. ولذلك دعا موسى -عليه السلام- ربه أن يفصل بينه وبين القوم العُصاة، :(فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)، قاصدا نفسه وأخاه هارون –عليهما السلام-، والفاء لترتيب الفرق والدعاء به على ما قبله، والفاسقون هم الخارجون عن طاعة الله، وقد جاء طلبه هذا ليحكم الله له ولأخيه بما يستحقه من ثواب، وعلى الفاسقين مما يستحقونه من عقاب[2].

فالعلاقة بين موسى وأخيه من جهة، وبين القوم الفاسقين العُصاة الرافضين لأوامر الله من جهة أخرى، هي علاقة تناسب في موضوع واحد؛ بمعنى أن كلاً منهما سيثاب حسب عمله، والتناسب هنا قوامه الجزاء من عند الله تعالى.

خاتمة

من خلال دراستنا لبنية الحجاج في قصة موسى -عليه السلام – توصلنا إلى أن روافد الحجاج بتقنياته المختلفة تبدو المؤسسة لبنية هذه القصة، وهي العامل الأساس الذي جعل هذه القصة تحقق فاعليتها الإقناعية. وفي خضم هذه المحاولة العلمية آن لي أن أخلُص إلى جملة من النتائج، تعد بمثابة استنتاجات توصلت إليها من خلال هذه المداخلة، وهي:

1- توصلت إلى أن الحجاج فعل لغوي غائي، يتحقق بين ذوات فعالة ونشيطة، يسعى المرسل من خلاله إلى حمل المتلقي على الإذعان، ويسعي إلى إقناعه بشتى الآليات المختلفة حسب المقام.

2- يختلف الحجاج باختلاف الطبقات المقامية التي يتنزل فيها، ويفرض على المحاجج اختيار التقنيات الحجاجية بتراكيبها ومعانيها المختلفة والمتعددة التي تتماشى والسياقات التي تُنْتَج فيها الخطابات، وتنسجم تمام الانسجام مع غاية الخطاب الحجاجي.

---

[1] روح المعاني –الألوسي-ج6-ص108.

[2] ينظر روح المعاني -الألوسي –ج6-ص109.

المنارة للاستشارات

3- محاولة "بيرلمان Perelman " الرائدة التي سعت إلى إخراج المفاهيم التداولية الحجاجية من صلب البلاغة التقليدية الغربية، وإكسابها طاقة حجاجية، يسعى المحاجج إلى توظيفها في خطاباته المتنوعة لتحقيق عملية الإقناع، كالشاهد والمثال والقدوة والتناسب وغيرها. وهو ما أدى به إلى تسمية هذا النزوع بالبلاغة الجديدة.

4-إن الحجج المؤسسة لبنية الواقع (المُبَنْيِنَة للواقع) لا تقوم على الواقع بل تعيد بناءه بواسطة الحالات الخاصة التي تسعى إلى تأكيد أو توضيح قضية معينة. أو بواسطة التمثيل الذي يسعى إلى الربط بين المتفقات أو المتباينات في الجنس أو النوع.

5- تتشكل البنية الحجاجية لقصة موسى -عليه السلام- من حجج متعددة ومتنوعة، وأحيانا تكون في سياق واحد. وتتسم بالانفتاح، وتهدف إلى إقناع أكبر عدد ممكن من المتلقين. والأكثر من ذلك أنها تسعى إلى إقناع المتلقي الكوني عبر الحقب الزمانية المختلفة، خاصة عندما تخاطب الحس والعقل.

وصفوة القول: إن بنية الخطاب القرآني الحجاجي على وجه العموم والبنية الحجاجية في قصة موسى -عليه السلام- على وجه الخصوص كلها حجاج، أراد الله تبارك وتعالى من خلالها إرشاد النفوس، وهدي القلوب، وحملها على حقائق الإيمان والتوحيد والعمل بالشرائع السماوية السمحاء، وإقناع المتلقي بها، ودفعه إلى الانفتاح على تأويل الخطاب القرآني بما يحقق له مقصديته، باعتبار أن المتلقي متلق كوني يتجدد فكره بتجدد الزمان والمكان والعُرف.

وبما أن الكمال صفة متعلقة بذات الله تعالى وحده لا غير، بوَدّي أن أعتذر وكأي باحث عن أي نقص صدر مني سهوا أو تقصيرا أو خطأ، خاصة في حق التعامل مع الخطاب القرآني، الذي يفرض على مُتناوِله أقصى مبادئ التأدب والاستسلام. وأسأل الله تعالى أن يوفقني وقارئ هذه المداخلة ويسدد خطانا ويجعلنا في خدمة الصالح العام.

مكتبة البحث:

القرآن الكريم

1 - الإحكام في أصول الأحكام- ابن حزم-تحقيق: محمود حامد عثمان –القاهرة –دار الحديث-2005.

2 - الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، محمد الولي، المغرب، مكتبة دار الأمان، ط1، دت.

المنارة للاستشارات

3 ـ أسرار البلاغة –عبد القاهر الجرجاني- لبنان-المكتبة العصرية –ط3-2001.

4 ـ البحر المحيط –أبو حيان الأندلسي –بيروت-دار الفكر-2005

5 ـ البلاغة: المدخل لدراسة الصور البيانية-فرانسوا مورو –ترجمة: محمد الولي وعائشة جرير-المغرب-دار الخطابي للطباعة والنشر –ط1-1989

6 ـ بلاغة السرد القصص في القرآن الكريم قصة يوسف نموذجا –ابراهيم عبد المنعم ابراهيم.

7 ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن-الرماني،الخطابي،عبد القاهر الجرجاني – تحقيق :محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام-(رسالة النكت في إعجاز القرآن للرماني)مصر-دار المعارف-ط3-1976.

8 ـ الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه-سامية الدريدي-تونس-عالم الكتاب الحديث -ط1-2008 .

9 ـ الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، بيروت لبنان، دار الفارابي، ط2، 2007.

10 ـ ديوان المتنبي –لبنان –دار الجيل .

11 ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني –الألوسي-لبنان-دار إحياء التراث العربي -1353هـ- ط2.

12 ـ شرح ديوان أبي الطيب المتنبي-مصطفى السبيتي –لبنان-دار الكتب العلمية.

13 ـ علوم البلاغة –أحمد مصطفى المراغي-لبنان –دار الكتب العلمية-ط4-2007.

14 ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه -ابن رشيق – تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد –لبنان-دار الجيل- ط5-.1981

15 ـ الكشاف- الزمخشري –شرح وضبط يوسف الحمادي-مصر-مكتبة مصر.

16 ـ لسان العرب -ابن منظور-لبنان –دار صادر –ط1.

17 ـ المحكم والمحيط الأعظم- ابن سيده –تحقيق: عبد الحميد هنداوي-لبنان – دار الكتب العلمية-مادة (حجج).

المنارة للاستشارات

18 ـ في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ـ طه عبد الرحمن- المعرب-المركز الثقافي العربي-ط3-2007.

19 ـ مفتاح الوصول إلى علم الأصول- محمد الطيب الفاسي –في شرح خلاصة الأصول –عبد القادر الفاسي –تحقيق إدريس الفاسي الفهري-الإمارات العربية المتحدة-دار البحوث للدراسات الاسلامية وإحياء التراث-ط1-2004.

20 ـ الميسر في البلاغة العربية-ابن عبد الله شعيب-الجزائر-دار الهدى-1992.

21 ـ النقد الأدبي دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن-صلاح الدين محمد عبد التواب.

22 ـ L'argumentation Du Discours A La Pensée –Georges Vignaux –France –Edition Hatier–1999.

23 ـ 1. L'argumentation Du Discours A La Pensée – Georges Vignaux

المنارة للاستشارات